بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب عن « عثمان بن عفان » ثالث الخلفاء الراشدين . .

كتاب عن « النَّبأ العظيم » ، الذى طال اختلاف الناس فيه ، ولا يزالون مُختلفين . .

والنَّهج الذى نقدم به اليوم حديثنا عن « عثمان » رضى الله عنه ، هو ذاتُ النهج الذى قدَّمنا به من قبل حديثنا عن [أبى بكر ، وعمر وعلىّ ، ورجال حول الرسول] . .

وهو نهجٌ لا يَدَعُنَا نَتَلَبَّثُ مع وقائع التاريخ ، إلا بالقدر الذى نُبصر به رُوح التاريخ . . ولا تشغلُنا الأحداث بزحامها عن تتبُّع « نَبْض » العظَمة والتفوق فى أولئك الرجال . . ! !

فَرُوح التاريخ ، وجوهر الشخصية ، يُشكّلان فى مُحاولتنا ، المادّة والموضوع . .

وفى صدق تاريخى ، لا تخدعه الأسطورة . .

وفى يقين فكرى ، لا تُضلِّله الشبْهة . .

وفى طُمأنينة نفسيَّة ، لا يَسْتخِفُّها الانفعال . . نمضى اليوم كما مضينا من قبل فى رسم صورة الشخصية من داخل عظمتها الباطِنَة ، ومواقفها الحاسمة . غير مُتكلِّفين موقفاً ، ولا مُتَخَفِّفين من تَبِعَة . .

* * *

والحقَّ أقول لكم : إننى حين صَحِبْتُ التاريخ فى مَراجعه . ، وأُمهاتِه لكى أدرس من جديد حياة « عثمان » دراسة تمكننى من رسم صورته وحقيقته ، لم أكن أحسب أن الله سبحانه سييسِّر مَسعاى وسبيلى على هذا النحو الذى صادفتُه وصادفنى . .

فالصورة التى فى أذهان الكثيرين منا عن عصر « عثمان » وخلافته تُوحى بأن الطريق إلى ذلك العصر وَعْر وشاقّ . . كما توحى بأن ذلك العصر بتناقُضاته ، ومشكلاته ، وفِتَنِه ، إنما يُسْعِف المؤرخ الذى يُسَجِّل الأحداث ولا يزيد . .

لكنه لا يسعف « الرَّسام » الذى يريد أن يرسم لوحة تعكس دلالَتَها الخَيِّرة على عالم القِيمِ والقُدوة . .

ألاَ ما أكذَبها مِن صُورة . . وما أظلَمها لرجل ، ولعصْر ، طالما أُنِسَت بهما العظمة ، وتفجَّر منهما العَطاء . . ! !

* * *

إن الذين تتخبَّطهم الشكوك والتساؤُلات حول « عثمان وعصره » . فيسارعون أو يُسارع بعضهم إلى « الخليفة العظيم » بأوزار لم يَحملها . .

إنما ضَنَّتْ عليهم الحقيقة بنفسها ؛ لأنهم ذهبوا يقيسون ذلك العصر بغير مقاييسه ، بل بضِدِّ مقاييسِه . . ! !

لقد عَمدوا إلى مجتمع قام منذ ألف وأربعمائة عام . له ظروفه وقِيمه . . ثم زَجُّوا به فى مختبَرات حديثة من المنطق ، والعلم ، وتفسير التاريخ . . مُختبرات قد تقدر على تفسير بعض أحداث ذلك العصر ، لكنها مهما يكن حِذقُها ومهارتُها لا تَملك حق الحكم النهائى عليه ، بل لا تستطيع استخلاص حقائقه البعيدة .

* * *

لقد كتب على « الخليفة عثمان » أن يحمل مسئولية الحكم فى ظروف ليس لها فى جميع التاريخ نظير . .

وقبل أن أُتَّهمَ بالمبالغة فى هذا التعبير ، أُسارع فأقول : إنه حمل تلك المسئولية الجسيمة فى فترة من الزمان ، كانت خِتاماً لـ « عصرٍ نبوىّ » بكل ما فيه من وَرَع ، وصمود ، وإخبات . . وبدايةً لـ « عصرٍ امبراطورىّ » ، بكل ما يحمل من مباهج ، ومخاطر ، ومُغريات . . ! !

صحيح أن الفتوحات الهائلة ، كانت قد أرستْ قواعدها فى عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » . . وأخذت دولة الإسلام ، ذلك الشَّكل السياسى الذى يُسمَّى بالامبراطورية ، وإن لم يَرَهَا المسلمون كذلك .

بَيْدَ أنَّ « أمير المؤمنين عمر » أَلْقَى بكل عَزمه وثِقَله فى الكِفَّة اليُمْنَى من الميزان ، حتى يظل « عصر النُّبوَّة » قائماً وسائداً ، بكل آدابه ،

وتقاليده ، وتَبتُّله ، ووَرعه ، متوسِّلا بذلك القَمْع الرَّهباني الذى فَطَم به الأنفس ، ومنَعها هواها . . ! !

ولم يكن من طبائع الأشياء أن يَدوم هذا النُّسُك . .

فالفتوحات تزخر بتناقضات يُنادى بعضها بعضاً . . ورياح التغيير المحتوم تسوق دولة الإسلام ومجتمعه إلى مطالع جديدة ، لا مفرَّ من لُقيَّاها بكل ما فيها من صفاء ، وكل ما فيها من غُيوم . .

وكان اغتيال « الخليفة عمر » إشارة البَدْء بمقدم عصر جديد . .

وهو عصر لن يتخلَّى المسلمون فيه عن رايتهم ، ولا عن مبادئهم ، لكن ستَزْحَمُهم فيه عَلاقاتٌ جديدة ، وتقاليد طارئة ، ومشكلات وافِدة . . ستفرض الكثير من إرادتها على رتابَةِ الحياة ، ومنهج الدولة ، وتطلُّعات المجتمع . .

* * *

وفى هذه الفترة الحرجة ، والسنوات الصَّعْبة ، دعَت المقادير « عثمان » ليحمل المسئولية الرهيبة . . مسئولية الإبقاء على رُوح « عصر النبوة » والتفاعل مع « عصر الامبراطورية » . .

فهل وجد سبيله إلى ذلك . . ؟ ؟

نَعم . . وبملء اليقين ، نَعم . . وستحدثنا عن ذلك إن شاء الله حديثاً مُفيضاً ، صفحات هذا الكتاب .

سنرى من أى طراز جليل ، كانت شخصية « عثمان » . .

ومن أى طراز كانت خلافته ، وكان حكمه . . وما الذى أغرى

الأزمات الضارية بأيّامه وعهده . . وهل ذهب شهيد فضائله ؟ أو ضحية أخطائه . . ؟

سنرى رجلا آخر من أصحاب « محمد » العظام ، حمل مسئوليته فى عزم مجيد ورشيد . . وحين لم يجد ما يحمى به مسئولياته سوى حياته ، جاد بها فى سماح منقطع النظير . . ! !

* * *

وذات يوم . . وقد ضاقت الدنيا بصمُوده ، امْتطَتْ روحه زوْرَق الأبدية ، مُبْحِرَةً إلى ربها الوَدود المجيد ، فوق نَبَجٍ من دمائه الغالية الزَّكية . .

* * *

ألاَ بُورِكَ الجسَد المثْخَن . .
وبُورِكتْ روحه النّاجية . .

* * *

وياشهيدَ فضائلك ، واقْتِناعِك . . سلاماً ، ووداعاً ! !